خربة قرقفة: حكاية حضارة في قلب طبيعة مسلوبة

لحمزة العقرباوي

خربة قرقفة: حكاية حضارة في قلب طبيعة مسلوبة

في السّفوح الشّرقية لِسلسلة جبال فلسطين الوسطى حيث تُشرف الأرض على انحدار الغور في جنوب نابلس، تتعانق ذاكرة الأرض مع عبق التاريخ في موقع يُعرف بـــ خربة قرقفة وهي في الجنوب الغربي من بلدة عقربا، وتبرز هذه الخربة التي تعتلي قمّة جبل كشاهد صامت على أزمنةٍ خلت، متوسطة أراضٍ لقرى وبلدات: عقربا، أوصرين، جوريش، وقبلان. وهي بما حوت من أطلال تُخبّئ تحت رُجوم حجارتها بقايا حضاراتٍ ماضية، وأساطير شَعبية لا تزال تهمسُ بها الرياح. لكنها اليوم تأنّ من ضجيج جرافات الاستيطان المَدفوعة بجنون السّلب والاستيلاء.

- **في المعنى والاسم**

قرقفة ويصح القول: "قرقفا" بألف ممدودة لا تاء مربوطة، وبعض الأهالي يجعل لفظها بالكاف بدل القاق فيقول (كَركَفِه) وهو مما يجوز عندنا في تسمية المواقع، وقرقفه بالقاف أم بالكاف، بالتاء أم بالألف الممدودة، هي اسم جبل وفيه خربة ومقام لولي وثلاثتهم يتشاركون الاسم ذاته، ولستُ أدري أيهما جاد على صاحبيه بالاسم فألحقه به، وفي معنى التّسمية وأصلها يقول الناس: هي القمة أو الجُمجمة والرأس، أما معاجم اللغة فتقول في معنى قرقفة أنها: صوت ارتعاد المبرود؛ وصوت اصطكاك الثنايا من شدّة البرد أو ارتعاده عند الغضب أو الخوف؛ ومن معانيها أيضًا: الصوت الشديد المرتفع، يكون عند هدير الحمام أو عند الضحك أو إذا على صوت هدير الفحل. والقرقف: طائر صغير جميل المنظر معروف في بلادنا.

ولا أبلغ من قول الشاعر حين قال:

طَروبُ طلاه الحبُّ والوجدُ قَرقفُهْ .. وَمُدمِنُ عِشقٍ يَحتَسيهِ ويرشفُهْ

وقد عرفنا في جنوب نابلس موقعين بذات الاسم، الأول خربة قرقفة جنوب عقربا التي نَتتبع حكايتها، والثانية خربة قرقفة جنوب جوريش، وفي كليهما حجارة متهدمة وخرائب مُتكومة، وهما يُقابلان الريح الباردة الآتية من الغرب حيث المجرى البحري، وكأنهما يرتجفان من شدّة برد الريح وزمهرير صوتها الشديد، وهما بالنسبة لما حولهما من أرض كأنهما الرأس علوًا. وهما -الخربتان- تتوسطهما قرية جوريش، وموقعهما على شمالها وجنوبها، ولا نعلم إن كان في الأمر رابطٌ ما. وهناك خربة قرقفة قضاء غزة في أراضي قرية السوافير المهجرة، ومثلها قرقفة في بيت لحم، وأخرى في لبنان.

- **طبيعة تُنبئ عن أثر الأجداد**

على بُعد 3 كم من مركز بلدة عقربا تقع خربة قرقفة، وهي مشادة بإتقان على جبل مُحاطٍ بأودية وانخفاضات من جهاته الأربع كأنها حصن أو حامية لفرادة موقعها وإشرافه ومنعته وعلّوه، ومن على قمَّةِ أعلى نقطة في هذه الخربة والتي تُعرف باسم (الزعيم)، يمكنك وأنت واقف عند "قصر العبد" أن تُطالع شمالاً امتداد "مَرج عقربا" ما بين "النَّجَمَةِ" شرقًا وقرية "أوصرين" غربًا، وإذا أرسلت بصرك أبعد تُطالع سلسلة تلالٍ تمتد شمالاً في عُلوٍ من جبل "الكروم" و "القعدة" وصولاً لجبل "العرمة" على ارتفاع 800 متر فوق مستوى سطح البحر. أما جنوبًا، فتُطل بنظرك على انحدار وادي الحج عيسى بشجره الرومي ومن فوقه يجلس جبل "أبو الكلبات" وفيه "جونة العافية" وشجرة "البُطمة الولية"، وفي الخلف منهما تظهر قرية جوريش و"قلعة الحطاب" وقرية كفر عاطية حيث مقام نبي الله ذو الكفل -عليه السلام-. وإلى الشرق من قرقفة يتراءى لك "سهل محفوريا" وجبل "كركس" وامتداد عقربا الجنوبي نحو مناطق "الزّوايا والكَفايفْ وَوَعر جَمَّه، وَصوف"، ويمكنك أن ترى مجرى الوادي الذي يَقسِمُ السّهل في فصل الشتاء حاملاً نصف ماء عقربا نحو البحر الأبيض

المتوسط، ناهيك أنك سترى عقربا وتلالها وعلو مآذن إثنين وعشرين مسجداً قائمة فيها اليوم. أما غربًا فَعينُك على "سهل اوصرين" المغروس بأشجار الزيتون، وستبصر عَين "بير الجَناب" ووادیها والطريق القديمة التي تربط بين قبلان وعقربا، وسيظهر لك جبل صبيح وما حوله من تلال حتى كرم التفاح فوق زعترة.

تشكل قرقفة في الجنوب الغربي من عقربا زاوية في مربع أضلاعه قلاعٌ وحاميات، وفي مركزه "أقربتاين" المدينة الرومانية التي جددها هيرودس، حين جعل عقربا واحدة من مدنه الاثنتي عشرة الرئيسة في فلسطين الرومانية. ففي الجنوب الشرقي من عقربا تقع خربة "الخرب" وفي الشمال الشرقي خربة "أبو الرّيسة"، وفي الشمال الغربي خربة "العرمة". وبهذه القلاع على رأس الجهات الأربع تَحصَّن محيط مدينة هيرودوس، وظلت مسكونة بعده كما كانت قبله.

هذه ليست مُجرّد تضاريس نسردها لنحدد موقعها، إنها بُنية اجتماعية جغرافية، وهي صَلابة تاريخية نستند إليها، وهي ذاكرة وطنية وحكايات تاريخ جُبل من عرق الأجداد، وفوقها أقول كفلاح يعرف تُرب الأرض وغرسها، بأنها: أرضٌ سَخيةٌ مِعطاءة، تُعّدّ من أجود البقاع إنتاجًا لزيت الزيتون في الريف الجنوبي لنابلس، إذْ تَسقيها أمطار الشتاء وَتُصافحها شمس النّهار لتهدينا زيتًا عالي الجودة يتسارع النّاس لشرائه.

في السّفح الشمالي لجبل قرقفة حيث منطقة "الفُقّي" تُطالعك شجرة قَيقب (قَتْلَبْ)، تأبى أن تُقتَلع رَغم كَثرة التّحطيب والتّقطيع، وهي مَعدودَةٌ في جُملة أشجار الأولياء في عقربا ولهم معها ذكريات وحكايات. وفي الطّرف الشمالي من الخربة مغارةٌ كبيرة كانت تُطل على مدخل عقربا الغربي المعروف باسم "باب وادي خالد"، مغارة تحتفظ بقصص عن قطاع طرق نُبلاء كانت لصوصيتهم فروسية ضد الإقطاع وَمحتكري المال، فاتخذوا من المغارة النائية والخفية ملاذًا لهم زمن الدولة العلية وكان منهم "أبو السرهد" وأبو مديريس، و "عبد المنعم".

وعند مُبتدأ الطريق الصاعدة نحو قرقفة مرورًا من منطقة "خلّة القسيس" تُطالعنا مَغارة "الحايك"، في أرض "الحاج خضر الحمزة" وهذه المغارة ارتبطت بذكرى رجلٍ كان يمتهن صناعة الحُصر مِن قُصّيب نهر الأردن بداية القرن العشرين، ذلك أن صناعة حصر القصيب كانت مهنة شائعة في عقربا أيامها.

وعلى حافة قرقفة وعند مَطلّ خربتها الجنوبي تَقف شجرتا بلوطٍ مُعمّرتان كَحارسين أمينين للمكان، تُطلان بعظمةٍ على وادي الحج عيسى، وأمامهما الصهريج وتحتهما الوادي. إنّهما ليسَتا مجرد أشجار بلوط؛ إنّما روح الولاية الخَضراء تحرس ذاكرتنا وتشهد على عروبة البلاد على مَرِّ العصور، وفي جوف هذه الأشجار تأوي قصصٌ وخرافات عن جن وعفاريت، وعلى أغصانها تدلت قُماشات وَخِرَق ملونة عَلّقها زُوّار سيدي الشيخ القرقفاوي الذي تَنتَسِبُ إليه أشجار البلوط هذه.

يُشكّل وادي الحج عيسى، المحاذي لجبل قرقفة، جزءًا من الذاكرة الجمعية لأهالي المنطقة، إذ ارتبط هذا الوادي بحياة كانت نابضة لأزمنة طويلة، ففيه كانت أشجار تين وارفة الظلال يقصدها الفلاحون في موسم القيظ، وعلى جنبات الجبل أشجار خروب وبلوط وبطم وَسريس وعنب وَزيتون وسماق. ومن هناك كان ينبعث صوت جدنا الشيخ عبد الرحمن أبو كبر صادحًا بالأذان في أيام الحراثة وفي موسم قطف الزيتون، ينادي بأعلى صوته مُبشّرًا بالسكينة والطمأنينة ومناديًا لواجب الله.

في الوادي وعلى جنبات جبل قرقفة بِجهاته الأربع حكايات وخرافات أسطورية عن "خيّالات الدم"، تلك الأرواح التي يُعتقد أنها تظهر في الأماكن التي سُفكت فيها دماءُ بشريةٌ، ومنها قصة "خيّالة الحج عيسى" الذي مَنح الوادي اسمه، وحكايات عن الأولياء الخيّالة الذين تَعدوا خيولهم راكضة من السّهل نحو بطن الجبل، فيختفون كأنهم سراب، وإلى وقت قريب كان الناس يتحدثون عن ظواهرَ غريبةٍ عند شجر البلوط، وعن "أبو القلايد"

جِنيُّ الواد الذي يُعتقد أنه يسكن قرقفة ويقيم في خرائبها، ولا يظهر إلا ليلاً، وله تُنسب حكاياتٌ عديدة عن خداع المارّة وإخافتهم، والمزاح معهم -دستور لخاطره-.

وعلى طول امتدادها، تُعانق خربة قرقفة طريقًا قديمةً، لا تزال أجزاءٌ منها تتحدى الزمن، تنحدر من سفح قرقفة الشمالي مرمروًا بمنطقة "شيبون" ثم نزولاً إلى "الخلة" وبعد ذلك صعودًا إلى "العماير" مرورًا بجبل "عكّار" مطل عقربا ومرتفعها الغربي، وهذه الطريق التي لها سنسلة يبلغ عرضها قرابة المترين، وترتفع سلسلتها الحجرية قدر متر ونصف، لم تكن مجرد ممرٍ للدواب والفلاحين؛ بل كانت شرايينَ حياة تربط بين الوجود البشري وأرض الفلاحة.

- **حكاياتٌ من عمق التاريخ**

في كل زاوية من خربة قرقفة، تتكشف لك طبقاتُ زمنيةٌ متداخلة، تُجسّد تمازج التاريخ بالذاكرة والأسطورة. ففيها تجد بقايا معمارية تُحدّثك عن عصورٍ كنعانية ويونانية ورومانية وبيزنطية وإسلامية، منها أساسات البرج والمُغر العميقة، والمقابر المنحوتة في الصخر، وصهريج الماء الذي كان مَسبحًا لنا في زمن الطفولة، وكذا أقواس تقف كبواباتٍ للماضي. كما تُخبرنا الحجارة المصقولة والبيوت المدفونة بأقواسها وعقودها عن وجود حياة قديمةٍ ازدهرت في هذا المكان. وحتى تحليل الفخار والعملات التي أتُيح للدكتور إبراهيم الفني -رحمه الله- فحصها بين الأعوام 2012-2014 دَلّت على أنّ الخربة كانت مأهولة بالحياة منذ العصور الكنعانية الأولى بلا انقطاع حتى العصر العباسي.

أما آبار الزيت والماء ومعاصر العنب، فلم أرَ في حياتي خربة بلغ عدد آبارها ومعاصرها مثل ما رأيت في هذا الجبل ومحيطه، ففيه نحو عشرة معاصر عنب محفورة بالصخر متفاوتة الحجم ظاهرة للعيان، وهناك مئات الآبار المتفاوتة الحجم والمَطليّة بطبقاتٍ من الملاط (القصارة) والمنتشرة في وسط الخربة وغربها، ذلك أن الجبل بلا عين ماء قريبة ولذا كان

اللجوء لحَفر مئات الآبار لتسد مسد عيون الماء في صيف البلاد. وفي وسط الخربة كشفت الحفريات غير الشرعية عن بيوت وسراديب وأبنية منها معصرة زيتون (بد) عملاقة الحجارة، وهذا طبيعي إذا علمنا بأن أكثر زراعة هذا الجبل ومحيطه شجر العنب والزيتون.

هذه الخربة ليست مجرد موقعٍ أثري غني بالمعالم كثير الركام الأثري؛ إنها ملاذٌ روحي، وساحةٌ خصبةٌ للحكايات الشّعبية التي تُجسّد رؤية المجتمع المحلي للكون والغيب والمقدّس. ففي قلب الخربة وتحت ظلال أشجار البلوط المُباركة، يقوم مقام سيدي الشيخ القرقفاوي، وهو وليٌ صالحٌ يُعتقد بولايَته وصلاحه، ويُقال بأنه من مجاهدي صلاح الدين الأيوبي الذين عبروا البلاد ينشدون حريتها من الاحتلال والاستبداد، وقد رويت لنا عنه كراماتٌ عديدة وحكاياتٌ عجيبة، ومن ذلك حمايته لزواره، وَفزعته لقاصدي ظلال أشجاره. وعند المقام مغارةٌ تُنسب إليه، بالإضافة إلى حُجرةٍ بُنيت فوق بئر ماءٍ قديم، لا تزال أطلالها صامدةً رغم محاولات التخريب المُتكررة.

ولطالما كانت هذه البقعة وجهةً للناس في طقوسهم الشّعبية، خاصةً في مواسم الجفاف، حينما كانت الطبيعة هي الملجأ الأخير لطلب الغيث، فكانوا يتضرعون إلى الله بأن يتفقدهم بهطول المطر، وصوتُ النّسوة يبتهل مناجيًا والأطفال من خَلفِهنّ يرددون:

يا الله الغيث سماوي.. بجاه الشيخ قرقفاوي

قَرقفاوي الله محييك .. رشق المطر يعبر فيك

وقد شُغل الناس في أزمنة كثيرة عن البحث عن الذهب والكنوز في خربة قرقفة، حتى أنني سمعت قصصًا من خيال عن قبور إسلامية ودنانير ذهبية عباسية، وأقنعة حجرية وسراديب مرصوفة، ومغائر ومعاصي لولبية، ولولا أني دخلت بعضها ورأيت بعينيّ ما صدقت شيئًا مما سمعت. ولعل من أعجب ما وثقت رواية عجوز معمرة لحفيدها تدله على المغائر في قرقفة، فقالت له: على باب كل مقبرة أو مغارة زرعنا شجرة تين، فحمل الفتى

فأسه وصحب رفقته وراحوا يفتحون خَفيَّ الأرض ومدفون تاريخها كأنهم يتتبعون خارطة بالغة الدّقة.

- **قاعدة الكفاح ودارُ المطاردين الأولى**

لم يكن سيدي الشيخ القرقفاوي المُجاهد الوحيد الذي آثر الرباط على سفح قرقفة صدًا للفرَنجة الصليبيين أيام الناصر صلاح الدين الأيوبي، فقد ظلت الأرض وفية للدم والتضحيات. ففي ثورتنا الكبرى عسكر فيها فصيل خالد بن الوليد بقيادة خميس العقرباوي، وَعند مدخل الخربة الشرقي في منطقة "باب الواد" جرت معركة في سنة 1938 بين الثوار والجيش البريطاني كما يروي الأهالي.

ثم تعزز دور قرقفة في ثورتنا المعاصرة كمكان تلجأ إليه دوريات الأرض المحتلة، إذ يروي المناضل الفلسطيني أحمد أبو هدبه -رحمه الله- في مذكراته غير المنشورة حكايات عن زمن الفداء الأول قبل أن تتيه بوصلة البنادق، وذلك لمّا كان يعبر نهر الأردن مع دوريات الفدائيين بين الأعوام 1967- 1970. ويروي بأن قاعدة فتح للعمل الفدائي كانت قد وُضعت في سفح الجبل المُقابل لقرقفة، لأن مطاردًا من بلدة قبلان اسمه (حامد صبّاح) كان قد اختار مغارة هناك لتكون مخبأ له، ومحطّة لاستقبال دوريات الأرض المحتلة.

وبحسب رواية أبو هدبة فقد تمكن من تجنيد عضويّ خليته الأولى من عقربا في خربة قرقفة، وفيها كان اجتماعهم ولقاؤهم به وبصحبه من الفدائيين الذين كان يتولى حامد استقبالهم، وأنّه - أي أبو هدبه- درّب أعضاء خليته محمود أبو كبر وخضر الحمزة على السّلاح بين قرقفة ووادي الحج عيسى، حيث اتّخذاها لاحقًا قاعدة لهم لاستقبال الدوريات وتخبئة السلاح، وتأمين الدوريات بعيدًا عن عيون الاحتلال، وقد عرفت هذه القاعدة لدى دوريات الأرض المحتلة التي استقبلت من قبلهم باسم (جماعة عقربا).

وقد بقيت قرقفة حسب ما يروي أبو هدبة قاعدة لخلية عقربا حتى بداية العام 1970 إذ تعرض أعضاء الخلية (خضر ومحمود) للاعتقال في إثر اعتقال صاحبهما أبو هدبة وخليته عند بير الحمام في الغور، ثم كان لاستشهاد حامد يوسف صبّاح (أبو مفيد) -رحمه الله-

واثنين من صحبه هُما: عبد العزيز عواد عمله وصبحي عبد العزيز أزعر، وذلك عند محاولتهم عبور نهر الأردن منتصف العام 1970 في إثر انكشاف خليّة قبلان واعتقال بعض أفرادها، أثر في انتهاء تجربة قاعدة الفدائيين في قرقفة ومحيطها.

- **الاستيطان: اغتيالُ للتّاريخ والطبيعة**

للأسف، باتت خربة قرقفة اليوم بكل ما تحمله من قيمة تاريخية وطبيعية وذاكرة شعبية، في مواجهةٍ غير متكافئة، إذ بدأت موجةُ خطيرةٌ من الاعتداءات الاستعمارية على الماضي والحاضر والمستقبل فيها، فقد شَرَعَ لصوص الدّهر ووحوش العصر بإقامة بؤرة رعوية في قمة الجبل الشّرقية المُسمّاة "الوَعر" وذلك بداية تموز من هذا العام، وسارعت أنياب جَرافاتهم المتوحشة تشق الأرض وتدمرها وتفتح طريقًا يعبر الغزاة بقوتهم عليها فَيدمروا حاضرنا وماضينا.

بؤرة استعمارية سرعان ما مُدّت لها يد الحياة فأُضيئت بالكهرباء ووصل لها خط الماء، وشقت لها طرق مُنعنا من عبورها وأغلقت في وجوهنا منذ سنوات بعيدة. ورافق ذلك أعمال تجريفٍ واسعةٍ طالت الموقع الأثري والأراضي الزراعية بما فيها من أشجار زيتون معمرة. وهذه الاعتداءات لا تمسّ ملكيات الفلسطينيين وحقهم في الأرض فقط؛ بل تُهدد تاريخ المنطقة وهويتها الثقافية، وتُغتال جمالها الطبيعي وإرثها الحضاري.

إن خربة قرقفة نموذجُ فلسطيني لتمازج الطبقات الزمنية بين التاريخ والذاكرة والأسطورة في سياقٍ طبيعيٍّ متناغم. وهي اليوم تُقرقف قلقًا من وحشية أنياب جرافات الاستعمار والتجريف والتخريب، كما يحدث في كل مناطق الضفة الغربية المصنّفة بأنها مناطق (ج). وأمام وحشية دولة الثكنة العسكرية تلوذ قرقفة صمتًا في حمى ولي الله القرقفاوي الذي سُلب صوته ونزع بريق سيفه من خذلان أمّة العرب، فآثر الصمت منتظرًا فرج الله، وجولة الحق التي لا بُد آتيه تُقرقف مجلجلة.